

أثر البلاغة العربية في الدرس اللساني الحديث -نظرية النظم أنموذجا-

أ. عماري عزالدين

جامعة المسيلة

الملخص: ما من شك في أن الدراسات البلاغية العربية القديمة تكتسي أهمية بالغة، وبخاصة نظرية النظم، هذه الأهمية لا تظهر إلا من خلال الوقوف على الأثر الذي أحدثته في الدراسات اللسانية الحديثة -العربية- ذلك أن كل النظريات اللسانية في الدرس الحديث تلتقي مع هذه النظرية في كثير من المفاهيم والحدود، وهذا ما يؤدي إلى الاعتقاد - ربّما - بامتداد جذور هذه النظريات إليها، تستقي من معينها، وتتمو في إطارها. - وهذا ليس معناه تعصبا للتراث، وليس نفيا للدرس الحديث واعتباره مجرد بديل مصطلحي للنحو والبلاغة القديمين، إذ يتنافى هذا وصفة الموضوعية في البحث العلمي -.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن أية محاولة للوقوف على أثر نظرية النظم العربية في الدرس اللساني الحديث، لا تمر إلا عبر محاولة أكيدة لفهم كليهما - نظرية النظم والنظريات الحديثة - ثم العمل على النقاط نقاط الالتقاء بينهما، ومنه فإن هذا البحث يسعى إلى بيان ذلك من خلال مفهومين اثنين:

مفهوم القيمة، ومفهوم السياق، هذا كله في إطار من التقصي في البحث والموضوعية في الطرح.

تمهيد: لقد عرفت الدراسات البلاغية ازدهارا عبر مرحلتين هامتين من تاريخ تطورها ابتداء من النشأة المتمثلة في البلاغة قبل الإسلام وصدوره وانتهاء بما سمي بمرحلة الجمود والجفاف وهاتان المرحلتان هما:
أولاً: مرحلة الدراسات المنهجية:

وهي المرحلة التي سبقت ومهدت لعبد القاهر الجرجاني ولقد شاع فيها استعمال بعض الأساليب الجديدة والتي لم يكن الأدب العربي على عهد بها وذلك نتيجة لتأثر الشعراء والأدباء والنقاد - بعامل الترجمة- بالثقافة الوافدة من الأمم الأخرى . وقد انقسم الأدباء والشعراء حيال هذا التأثير قسمين:
- قسم قبل ذلك واستساغه وتأثر به أيما تأثر، وخير من يمثله أبو تمام في شعره .

- قسم حافظ على القديم ودافع عنه، وخير من يمثله البحتري.
هذا، ولقد اشتد الصراع بين المحافظين والمجددين، فتعالت أصوات المجددين متهمين غيرهم بالسطحية، وانبرى من المحافظين من يدافع عن أصالة البلاغة العربية وأنها في غير حاجة إلى الاستمداد من أية أمة أخرى. ويعد كتاب "البديع" لابن المعتز (249هـ - 296هـ) حجر الأساس في ذلك، فهو أول دراسة منهجية تخطت الملاحظات العابرة والتعليقات الموجزة إضافة إلى وقوفه ووقوف الوثائق أمام تيار الصنعة والتكلف آنذاك فقد صرح بغرضه من كتابة قائلاً: « وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبحاث البديع»¹.

ثانياً: مرحلة الدراسات البلاغية: اتسمت الدراسات البلاغية بمنحى فلسفي نتيجة تأثر دارسيها بالثقافات الأخرى ومحاولتهم إقامة البلاغة العربية على أساس هذه الثقافة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: قدامة بن جعفر (ت 337هـ) في كتابه "نقد الشعر"، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت 403هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" فقد ظهر أثر المنطق في روح وطابع كل منهما.

ولقد ظهر في هذه المرحلة أيضاً تيار المتكلمين والذي كان يهدف إلى غايتين هما:

- البحث في إعجاز القرآن تمكينا للدين في النفوس.
 - الوقوف في وجه تيار استمداد البلاغة من الآثار اليونانية وقطع الطريق أمامه، وقد نتج عن ذلك الدفاع عن الدين لمنطق الثقافة الحديثة.
- وإذا كان علي بن عيسى الرماني بكتابه "النكت في إعجاز القرآن" (ت 386هـ)، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت 403 هـ) بكتابه "إعجاز القرآن" من الذين يمثلون هذه المرحلة، فإن قمة النضج فيها يمثلها عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) بكتابه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، هذا الأخير الذي عرض فيه نظريته المشهورة حول النظم، والتي كان لها أثرها في الدرس الحديث، وقبل تبیین ذلك لا بد من معرفة شاملة للنظم تنطلق من تحديد مفهومه وتتبع أثره حتى أینع عند عبد القاهر الجرجاني وأصبح له أسسه وقوانينه التي يعرف بها.

01/ مفهوم النظم:

أ- **لغة:** جاء في لسان العرب: «النظم في اللغة هو لتأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، يقال: ... نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر ونظمه ونظم الأم على المثل، وكل شيء قرينه بآخر أو ضمنت بعضه إلى بعض فقد نظمته. والنظم: المنظوم؛ وصف بالمصدر والنظم ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما والنظام الخيط الذي ينظم اللؤلؤ»². وفي أساس البلاغة: «ومن المجاز نظم الكلام، وهذا نظم حسن وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته»³. ومن هنا فالنظم في اللغة «بمعنى الجمع والضم والنظام والربط، والتأليف الذي يراد به ضم الكلمات المتخيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق»⁴.

ب- **اصطلاحاً:** النظم هو: «تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتمدة دلالاتها على ما يقتضيه العدد»⁵.

والملاحظ أن كلا التعريفين - اللغوي والاصطلاحي - يتفقان في كون النظم هو التأليف، وضم الكلمات بعضها إلى بعض على حسب ما يقتضيه العقل والمنطق، وذلك «على مستوى الحروف والكلمات والجمل وهو ما يقوم على التقليد المأثور المستعمل من كلام العرب باعتباره مقياساً للصواب والخطأ»⁶.

02/ نشأة نظرية النظم وتطورها: اتسعت رقعة الدولة العربية في

العصر العباسي، وهذا ما أدى إلى اختلاط العرب بالأجانب، هذا الاختلاط أثر سلباً بفساد الذوق العربي وانحرافه وانتشار اللحن، وأثر إيجاباً بظهور

عامل الترجمة والذي أدى بدوره إلى شيوع الثقافة الأجنبية في أوساط المسلمين، تزامنا مع ظهور فرق المتكلمين المختلفة، والتي خصت نفسها بالبحث في سبب إعجاز القرآن الكريم.

اختلف المتكلمون في سبب إعجاز القرآن الكريم، فإن كان منهم من أرجعه إلى الصرفة*، فإن منهم من أرجعه إلى مزية النظم حيث يعتبر الجاحظ (ت255هـ) من أوائل من ألفوا في نظم القرآن « ويتجه التفكير في النظم القرآني عند الجاحظ، (فضلا عن قضايا البيان العامة) في اتجاهين كبيرين:

- التركيب النحوي والدلالي الذي يستوعب مادة "المعاني" و"البيان" عند السكاكي...

- المعجم والمقام، قال في ذلك: «وقد يستخف الناس أفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب** ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث...»⁷»⁸.

وإذا كان الجاحظ يجعل الهدف من النظم هو البيان والإفهام، فإن أبا الحسن الرّماني (ت386هـ) وهو يتحدث عن إعجاز القرآن الكريم، يرى أنه ليس كل من أبلغ مراده بليغا، فكل الناس يتساوون في ذلك؛ «وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلما أحدهما بليغ والآخر عي ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى

وهو غث مستكره ونافر متكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»⁹، ومن هنا فإن الكلام عنده حسن وقبيح، «فالقبيح كالتخليط والمحال الذي لا يتضح به معنى، والحسن هو الكلام المبين عن معان واضحة...»¹⁰.

ولما كان الكلام عند الرماني (حسن وقبيح)، فهو عند الخطابي (ت388هـ) على أجناس مختلفة، «فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرّسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة»¹¹.

وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قائم عنده على ثلاثة أسس: لفظ حامل ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، ومقومات الكلام هذه جاءت في القرآن الكريم باعتباره كلاماً، يقول في ذلك: «وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»¹².

ويأتي الباقلاني (ت403هـ) وقد أفاد من جهود سابقه - الجاحظ والرماني - ليضع نظريته في النظم، ويأتي في كتابه "إعجاز القرآن" على تفسيرها، وبيان ما فيها من الروعة والجمال، «فيتحدث عن نظم القرآن ويقول إنه مخالف للمألوف من كلام العرب، وله أسلوب يتميز به بيبان

أساليبهم في الكلام الموزون والمنتثر بضربيه من السجع والترسل، وهو أسلوب فريد، تطرد فيه البلاغة اطرادا يشمل جميع آياته دون أي تفاوت.... كما يقول إنه يتفوق على كلام البشر في إيجازه وإطنابه وصوره البيانية والتعبيرية، ومن تمام ذلك فيه دقة وضعه الأسماء والألفاظ لمعانيه التي لم تكن متداولة بين العرب ولا مألوفة لهم. ومما يكشف عن روعته أن الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقاً¹³.

يأتي القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ) ليتناول في كتابه (المغني) النظم بشيء من الدقة والتفصيل، حيث يقول: «اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد من الضم من أن يكون لكل كلمة صفة»¹⁴.

فبعد الجبار يرى بأن النظم هو التمام الكلمات بعضها مع بعض، وأن مراعاة الإعراب والحركات والموقع يجعل النحو ركنا مهما في النظم حتى تتحقق له البلاغة. وعلى هذا يكون القاضي عبد الجبار قد وضع الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر الجرجاني فكرته في النظم.

هذا الأخير الذي أرسى قواعد النظم والذي دافع عنه بحماسة وبنى له أسسا حتى أصبح نظرية متكاملة لم يتح لأحد من قبله أن تناولها بهذه الصورة الواضحة، منطلقا فيها من استحالة الفصل بين اللفظ والمعنى.

يعرف عبد القاهر النظم قائلا: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»¹⁵، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة:

- تعلق اسم باسم، بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له.

- تعلق اسم بفعل، بأن تكون فاعلا أو مفعولا به أو مطلقا أو فيه أوله أو معه.

- تعلق حرف بهما، وذلك على وجوه عدة¹⁶.

كما يشير إلى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة (المزية) وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي سبقتها، والتي تليها يقول: «وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟

وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظا للتالية في مؤداها؟»¹⁷.

ويؤكد أن نظم الكلم يقتضي فيه أثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس، «من حيث إن الألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فغنما لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق...»¹⁸، ثم هو يتكلم في مكان النحو منه، فيقول: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ رسومه التي رسمت لك، فلا تخل بشيء

منها»¹⁹. كما يرجع المزية (الحسن) في النظم إلى معاني النحو وعلى وجوه الفروق التي من شأنها أن تكون فيه²⁰.

ويتحدث عبد القاهر عن اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، فيعرض لضروب الكناية والتمثيل، كما يعرض لسائر ضروب المجاز من المجاز العقلي أو المجاز في الإسناد وغيره، كما يتحدث عن للاستعارة²¹، ويقرر أنها كلها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون .

ويتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير وفي الحذف، ويتكلم على فروق الخبر من مثل، "زيد منطلق" و"منطلق زيد" وعلى أسرار الإتيان بالذي، وعلى فروق الحال، لها فضل تعلق بالبلاغة، وعلى أسرار الفصل والوصل وعلى تقديم كل النفي وتأخيرها عنه، وعلى مثل {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ} ²² وعلى أسرار التتكير في مثل {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} ²³، وعلى ضروب تأكيد الخبر وعلى القصر.

إن عبد القاهر الجرجاني وهو يبحث في دلائل إعجاز القرآن الكريم، وبعد إعمال فكر، يتوصل إلى أن سبب إعجازه لا يرجع لا إلى لفظه، ولا إلى معناه، وإنما إلى نظمه، وما يقرره في ذلك، ما يلي:

- أن البلاغة والفصاحة والبراعة كلها تتحقق من خلال النظم.
- أن النظم قائم على عدم الفصل بين اللفظ وبين المعنى.
- أن الكلمة مفردة تأخذ قيمتها من خلال السياق الذي ترد فيه
- أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم.

لقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي إثراء جليلاً، في نقد الأساليب وتحليلها، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر النثر.

03/ أثر نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث: إذا ما أنعمنا النظر في

الدرس اللغوي الحديث فإننا نلتبس مستويات من التقابل ونسب من التماثل بين كثير من آراء عبد القاهر الجرجاني اللغوية وطروحاته ومعالجاته، وما توصل إليه علم اللغة الحديث، ويمكن الوقوف عند كل ذلك من خلال ما يلي:

أ - نظرية النظم ومصطلح القيمة: لم يعر عبد القاهر الجرجاني اللفظة

المفردة اهتماماً كبيراً، فليس لها أي قيمة ما لم تدخل في تركيب معين ومن هنا كان انصرافه إلى تلك العلاقات التي تتحقق بين الكلمات بدخولها في تركيب نحوي، يقول: « واعلم أن مثل واضح الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة. وذلك أنك إذا قلت: "ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له"، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدة معان، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو "ضرب"، وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق»²⁴.

إن استخدام الجرجاني مصطلح التعلق إقرار منه بأن الكلام بصيغته الاجتماعية بناءً يحكمه نظام مكون من طائفة عناصر لغوية مترابطة منسقة ضمن شبكة من العلاقات السياقية المحددة لوظائف المفردات في السياق من الفاعلية والمفعولية والابتداء والخير...²⁵.

وهذا ما ذهب إليه اللغوي السويسري فردينان دي سوسير (1857م – 1913م) بتأكيدِه على أن اللغة كتلة عناصر متماسكة وأن أهمية الدراسة اللغوية ولاسيما دراسة دلالة العناصر التنظيمية، تكمن في دراسة العلاقات والروابط الجامعة بينهما. وخلاصة ما يقرره دي سوسير حول قيمة الكلمة: «إن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد»²⁶.

وعبد القاهر الجرجاني لم يقف عند هذا الحد، إنما وضح وجوه التعليق وسبل الربط في نظام التركيب اللغوي في العربية بتحديدِه شبكة من العلاقات الشكلية القائمة بين الوحدات المرفولوجية وهي (الاسم والفعل والحرف) التي أدرك قيمتها، وتفتن إلى أن أساس المستوى التركيبي والدلالي هو المستوى الصرفي، ويضيف أن الكلام ثلاث: اسم وفعل، وحرف وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما.

إن علماء اللغة المحدثين يتفوقون مع عبد القاهر الجرجاني في كل ما سبق ذكره، فهم ينظرون إلى العنصر اللغوي كأنه لا وجود له إلا من خلال العلاقات التي يقيمها مع غيره من العناصر، وهذا يدل على أن الجرجاني قد بنى نظريته على مقياسين أساسيين وهما: مقياس (الاختيار)، ومقياس (التركيب)، وذلك لضمان فصاحة المفردات وسلامة بنيتها الداخلية مما يعكر فصاحتها، ويفسد جمالها الأدبي، ولاستقامة المعنى الدلالي وتصويره أحسن تصوير، يقول: «... ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به

وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية»²⁷، إذن مبدأ الاختيار عند الجرجاني يتعلق بفصاحة العنصر اللغوي ومدى مسابقتها للاستخدام اللغوي السليم، بأن يكون مألوفا ومستعملا وجاريا على المعايير الصوتية، ويرتبط كذلك بالملكة اللغوية البليغة عند المتكلم²⁸.

إن لهذين المقياسين أهمية كبيرة في السمو بالتراكيب اللغوية إلى مستويات بلاغية رفيعة في عملية تحديد الأبعاد الدلالية التي تدخل في صلب دراسة الجرجاني في الدلائل، «إذا إن الانتقاء وفي نقطة تقاطعها وبعد ذلك، لفئة ذكية من الجرجاني الذي أراد أن يضع المقومات الجوهرية للأسلوب الأدبي الذي يستند أساسا إلى مقياسين متكاملين: مقياس انتقاء الرصيد اللفظي من القاموس العام للغة، ومقياس توزيعه وتنسيقه على سلسلة الكلام»²⁹، وهذا ما يتوافق في الدرس الحديث مع نظرية "رومان جاكسون" الذي يرى بأن الأسلوب توافق بين عمليتين، أي: تطابق لجدول الاختيار على جدول التوزيع مما ينشئ انسجاما ما بين العلاقات الاستبدالية والعلاقات الركنية.

ب - نظرية النظم ونظرية السياق: ورد في شرح لفظ "السياق" في المعاجم العربية القديمة والحديثة على السواء معاني كثيرة، غير أن القاسم المشترك الذي يستخلص من بين هذه المعاني جميعا في تناولها مادة (سوق) بالتفسير والتوضيح معنى واحد تشترك فيه وهو التتابع والسير والملاءمة والاتفاق والنظم، وما يؤدي هذا المعنى مباشرة دون تأويل أو مشابهة قول الزمخشري (ت538هـ) في أساس البلاغة «وتساوقت الإبل، تتابعت وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث. وهذا الكلام مساقه إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده»³⁰.

وأما في الاصطلاح، و«بالرغم من ورود لفظ السياق في التراث العربي بهذه الصيغة وبصيغ أخرى، سواء كان وروده عند اللغويين أو البلاغيين أو المفسرين أو الأصوليين، إلا أنه يستعمل استعمالات (سياقية) مختلفة وقابلة لتعدد الفهم.

ويمكن أولاً إطلاق حكم مفاده أنه مع تعويل القدماء على السياق والإفادة من فهم النصوص أو بنائها، إلا أنه لم يعتد به مصطلحاً قائماً في العلوم المشار إليها، بدليل أنه لم يوضع له تعريف معين***، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر»³¹

وأما عن أهميته في الدرس البلاغي فينوّه أحد الدارسين إلى أنه من «أبرز الملامح في النظر البلاغي عند العرب قام على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال، واستشعر المقولة السائرة "لكل مقام مقال" ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق، سياق الحال خاصة، وهي حال المتكلم والمخاطب وسائر ما يتألف منه المقام، ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام وتأليفه على هيئات في القول تنتوع وفقاً لتتوع المقامات»³².

وكان لقضية السياق مفهوم يكاد يكون متكاملًا عند عبد القاهر، وذلك حين أوضح بأن السياق هو ترتيب الألفاظ في الجملة وتأليفها بحيث تتألف مع ترتيب هذه الألفاظ ومعانيها في النفس والذهن والعقل، وقد تناثرت أقواله في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فالبلاغيون عبروا عن توافق اللفظ مع المعنى بعبارتهم المشهورة "لكل مقام مقال"، وهو عبّر عن مدى الارتباط بين الكلمات بعضها ببعض، ومناسبتها للسياق والمقام الذي تذكر فيه. «لا يمكن أن تكون الكلمات بليغة في حد ذاتها، ولكنها بحاجة إلى سياق. وعندما

يترتب السياق بالشكل الصحيح - أي النظم - يمكن أن تكون هناك بلاغة وتفوق في الأسلوب. ويشير الترتيب الصحيح في هذا السياق إلى التوافق بين المعاني في الذهن والكلمات في الجملة»³³.

كما ركز عبد القاهر الجرجاني على مسألة السياق الكلامي الذي ترد فيه العبارة، فكلمة (ربض) خارج النظم لا تفرق عن (ضرب) لكن (ربض) (الكلب) يخالف (ضرب محمد أخاه)، فالتركيب يحصل استحسان الكلمة وقبولها أو رفضها، والكلمة في السياق تتعلق بما يجاورها، فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبين بعضها على بعض ويجعل هذا بسبب تلك وهذا بمراعاة أحكام النحو ومعانيه، والاختيار يكون بحسب انسجام الكلمات وفقا لأحكام النحو. ويلفتنا النظر في الكلمة المجردة أي قبل دخولها في سياق لغوي، والنظر إليها بعد دخولها في هذا السياق مشيرا إلى ما يعرض لها من مزايا في الحالة الثانية، وذلك بفضل موقعها في السياق المنظوم³⁴.

وهذا ما يقف عنده الدرس اللغوي الحديث، حيث إن نظرية السياق قائمة على ملاحظة العلاقات الرابطة للوحدات اللغوية وذلك لتحديد المعنى المراد إذ يقول مؤسس هذه النظرية فيرث (1890م/ 1960م) أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية أي بوضعها في سياقات مختلفة بواسطة العلاقات التركيبية، كما يقول اللغوي البريطاني (بالمر. أ) أيضا: «إن الكلمات إن كان لها معنى، فإنها تستقيه من عملها في الجملة»³⁵. ومنه فإن تحديد معنى الكلمة عند أصحاب نظرية السياق في الدراسات الغربية لا يكون إلا من خلال استعمالها في اللغة، والدور الذي تؤديه، ودراسة معناها يكون

بملاحظة الوحدات المجاورة لها والمواقف التي ترد فيها، لذا فإن القرائن المقامية تلعب أكبر الدور في تشكيل النظرية³⁶.

لقد استطاع عبد القاهر الجرجاني بانتهاؤه إلى نظرية النظم من أن يتغلب على قضية اللفظ والمعنى التي اشتغل بها من سبقوه وعاصروه ولم يقدرُوا على بث الحكم النهائي فيها، ويستدل على ذلك بما ذكره من أن نظم المفردات وترتيبها يقتضى آثار المعاني وترتيبها في النفس³⁷، وهو أيضا «يلفتنا إلى النظر في الكلمة مجردة، أي قبل دخولها في سياق لغوي والنظر إليها بعد دخولها في هذا السياق، مشيراً إلى ما يعرض إليها من مزايا في الحالة الثانية، وذلك بفضل موقعها من السياق المنظوم. وأبعد من هذا، فإنه يرى أن إحساسنا بقيمتها الجمالية قد يختلف من سياق لغوي إلى سياق لغوي آخر، فقد تستعذب الكلمة وتحلو في سياق، وقد تستهجن هذه الكلمة بعينها أو يقل حسنها في سياق آخر»³⁸. وهذه الكلمة المفردة ميز فيها عبد القاهر الجرجاني بين تشكيلها الصوتي وبين بنائها التنظيمي النحوي تمييزاً دلالياً وليس شكلياً، وذلك من وجهين: سمي الأول (الحروف المنظومة) التي لا يحتاج نظمها إلى اقتفاء اسم دلالي في الذهن بحيث لو قال واضع اللغة (ربض) بدلاً من (ضرب) لما أخطأ، وسمى الثاني (الكلم المنظومة) التي يواكب نظمها آثار الدلالات وكيفية تنسيقها في العقل³⁹، من ذلك أدرك الجرجاني الطبيعة الاعتباطية للعلاقة الكائنة بين الدال والمدلول.

إن قول عبد القاهر الجرجاني باعتباطية الإشارة اللغوية هو ما أدركه دي سوسير حين قال: «إن الإشارة اللغوية اعتباطية. ففكرة "الأخت" sister لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات s-o-r التي تقوم بوظيفة الدال

في اللغة الفرنسية: فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر...»⁴⁰.

إن مقارنة واعية بين منهجي عبد القاهر الجرجاني ودي سوسير تبين ما يلي:

- إن مصطلح التأليف عند عبد القاهر يقابله مصطلح التركيب عند دي سوسير.

- إن الكلمة بمفردها عند عبد القاهر لا فائدة لها في تأدية المعنى، إلا بضمها إلى أخواتها التي تكون مجموع الكلم أو البناء، وهذا ما يقابله تماما عند دي سوسير أن الكلمات المتفرقة لا تعني شيئا في التركيب إلا إذا كانت مجتمعة داخل وحدات متداخلة.

- لا تفاضل للفظ على لفظه أخرى في رأي عبد القاهر ما لم تكن هناك دلالة تربط المعنى بمدلوله، وتفسير هذا عند دي سوسير أن لا معنى للعلامة إلا بعلاقتها بما ترتبط به من معنى كلي.

- إن الصورة الكلامية عند عبد القاهر من خلال النص تحددها الوظيفة التعبيرية التي تؤديها الجملة إن كانت الجملة إخبارا (وهو التقرير)، أو استخبارا (وهو الاستفهام)، أو غيره مما يخدم ويوضح نوعية النسق، ويقابل كل هذا في رأي دي سوسير بصريح اللفظ أن الجمل كذلك لها دورها في خدمة نظام الكلام الذي يحدد النسق على قدر المعنى الوظيفي في الجملة الإخبارية والاستخبارية... فليس من باب الصدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشكل الموضوعي المتسلسل المتطابق دون أن تكون هناك علل عملية تتعلق بتقنيات الدرس اللغوي المحكم بين هذين العالمين مع التباين في الفارق

الزماني البعيد بينهما، مما يرجح الحكم أنّ عبقرية عبد القاهر قد فاقت جهود دي سوسير بعامل السبق والابتكار⁴¹.

وفي ختام البحث لا بد من تسجيل أن عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يأتي بنظرية متكاملة تضاهي أحدث النظريات اللغوية في النصف الثاني من القرن العشرين، وبخاصة جهود العالمين الغربيين (فردينان دي سوسير وفيرث) من خلال آرائهما حول (القيمة – السياق) والتي لها ارتباط وثيق بنظرية النظم.

إن هذه النظرية كفيلة إذا ما بسطت وشرحت أن تبعد الجفاف عن بلاغتنا العربية وأن تقربها من نفوس دارسيها، وأهم ما يمكن الإشارة إليه حول هذه النظرية أن الألفاظ هي وحدات اللغة، وهي رموز للمعاني لا تتفاضل في ذاتها، وإنما يكون لها الفضل من حيث دلالتها على المعنى، ومن حيث موقعها من النظم، وكل ما يمكن أن يقال في تفاضل الألفاظ المفردة أن تكون مألوفة أو غريبة وحشية، والنظم يكون بحسب المعاني، وهو متوقف على التركيب النحوي، ولا يكفي الناظم أن يكون عالماً بقوانين النحو ومعانيه وإنما يجب أن يكون عالماً بمواضعها ووجوهها. والفروق بينها، فالفضل والمزية يعود إلى حين التخيير في دائرة حدود النحو وإلى اهتداء الناظم إلى الأفضل فالأفضل.

بعد كل هذا لا نبالغ إن قلنا بأن ما يتعلق بنظرية النظم من مفاهيم هو من السبق والعمق معا بحيث يتفوق على كل ما جاء به الدرس اللغوي الحديث وبخاصة نظرية السياق، فإن النظريات العربية التي أسست لدراسته – السياق – كانت أوفى من النظريات الغربية الحديثة.

الهوامش:

- 1 - ابن المعتز، البديع، تحقيق المستشرق كراتشوفسكي، لندن، 1935، ص: 1، 2 .
- 2 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، مادة نظم (د ط) (د ت)، ج:14، ص: 294.
- 3 - الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1998، ص: 284.
- 4 - صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة - الجزائر (د ط)، 2002، ص: 92.
- 5 - الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، لبنان /بيروت، طبعة جديدة، 1985 ص: 261.
- 6 - صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 92.
- * أبو إسحاق النظام، ومفاد ذلك أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، غير أن الله صرفهم عنه.
- ** السغب: شدة الجوع.
- 7 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط:07، 1998 ج1، ص:20.
- 8 - محمد العمري، البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا للشرق - المغرب -، د ط 1999م، ص: 157- 158.
- 9 - الرّماني، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:3، د ت، ص:75.
- 10 - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط:06، د ت، ص:107.
- 11 - الخطّابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 26.
- 12 - المرجع نفسه، ص: 27.
- 13 - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 109.

- 14 - القاضي عبد الجبار، المغني في التوحيد والعدل، ج16، ص: 199. نقلا عن: حاتم الضامن، نظرية النظم، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة/ بغداد، د ط 1979، ص: 23.
- 15 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 05، دت، ص: 04.
- 16 - ينظر: المرجع نفسه، ص: 04، 08.
- 17 - المرجع نفسه، ص: 44، 45.
- 18 - المرجع نفسه، ص 52.
- 19 - المرجع نفسه، ص 81 .
- 20 - المرجع نفسه، ص 87.
- 21 - المرجع نفسه، ص 66، وما بعدها.
- 22 - سورة الأنعام، الآية: 100.
- 23 - سورة البقرة، الآية: 179.
- 24 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص412، 413.
- 25 - ينظر: المرجع نفسه، ص410.
- 26 - فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطليبي، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، د ط، 1985، ص: 134.
- 27 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 43.
- 28 - ينظر: دلخوش جار الله حسين، الثنائيات المتغيرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، (دراسة دلالية)، منشورات دار دجلة، ط: 01، 2008م، ص: 19 - 20.
- 29 - ينظر: أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 1991، 08، ص: 44.
- 30 - الزمخشري: أساس البلاغة، ص 225.
- *** - لم يرد في تعريفه إلا عبارة "سوق المعلوم مساق غيره".
- 31 - ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعتها، جامعة أم القرى، ط: 01، 1423هـ، ص: 41.

- 32 - نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص: 88. نقلا عن: آفاق اللسانيات، إشراف وتحرير: هيثم سرحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط:01، 2011، ص: 445.
- 33 - كيس فيرستنج، أعلام الفكر اللغوي، تر: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط:01، 2007، ص: 175.
- 34 - ينظر: عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، 2000 ص:191. 192.
- 35 - بالمرر، علم الدلالة، ترجمة: مجيد الماشطة، مطبعة الجامعة المستنصرية، د ط، 1985 ص: 46 .
- 36 - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، طبعة 1994، ص: 337.
- 37 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 52.
- 38 - عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، ص: 189، 190.
- 39 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 49.
- 40 - فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، ص: 87.
- 41 - ينظر: محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني - دراسة مقارنة- دار الفكر/ دمشق، دار الفكر المعاصر/ بيروت، لبنان، 1999، ص: 27.